وما ذكره عن سيبويه من ذكر التاء مع المقلقلة رَدّه بقوله: «مع أنّها المهموسة».

وسترى في قابل ما أصاب الضّاد في الأداء القرآني عند المُحَدّثين من تغيير كان أولى أنْ يَلِج بها من أوسع الأبواب إلى حروف القلقلة، غيرَ أنّهُم حاروا في أدائهم بين الوصف الموروث للحرف، وما أصاب صفته من تغير موجب لتغيير الأداء، وكانَ أمرهم عجباً في الجمع بين نقيضين لا يَسُوغ اجتماعهما.

ضاد العربية بين القديم والحديث:

يرى الباحثون ممن عرضوا[٦٨] لهذه المسألة أنّ نُطْقَ الضّاد في عصرنا هذا مُخْتَلِفٌ عن نُطْق الضّاد في القديم، أما في زماننا هذا فإنّ حرفَ الضّاد في بعض البلاد العربية يسمع صوتاً شديداً مجهوراً مطبقاً، وهو النظير المجهور للطّاء، والمُقابل المفخّم للدّال، أي: أنّه يختلف عن الطّاء في تذبذب الأوتار الصوتيّة معه وعدم تذبذبها مع الطّاء.

ويختلفُ عن الدّال في ارتفاع مؤَخّر اللّسان وتقعّره، وذلك ما لا يَحْدُثُ مَعَ الدّال، وعند نُطْق الضّاد في مِصر ينحبِسُ الهواء عند نهاية الْتقاءِ طَرَفِ اللّسان باللّثّة وأُصول الثنايا، وبعد انفصال اللّسان نَسمعُ صوتَ الضّاد الحديثة. كذا في مِصْرَ، أمّا في بعضِ البلاد العربية مثل العراق وبعض أقطار المغرب فهي شبيهة بصوت الظّاء.

قال: «وكِلا النُّطْقَين انحراف عن الأصل». ويُمْكِنُ مُقابلة هذا الخلاف كما يلي:

الضّاد الحَديثَة	الضّاد القَدِيمَة
- صوت أسناني لثوي	- صوت شَجري «أو أسناني لثوي من مخرج اللّام».
١ - يكون اتجاه حركة الهواء من فوق ظهر اللّسان، ولا يجري انحباسه إلّا في نقطة واحدة عند المخرج.	١ - ينحرف اتجاه حركة الهواء إلى حافَتي اللّسان ممّا يلي الأَضْراس، وبِذلك تتحقق صِفة الاستطالة.
٢ - انحباس الهواء خلف العضوين المُتّصلين قبل انفصالهما بشكل مُفاجئ، ومِنْ ثَمّ فهو صوت شديد.	٢ - يَخْرُجُ الهواء مصحوباً بحفيف ناشئ عن الاحتكاك بالمَجرى الضيّق، فالصوت فيه رخاوة.
٣ - تقعُّر اللّسان من أجل الإطْباق وارتفاع مؤَخّر اللّسان، نحو الطَبَق مع رجوعه باتجاه الحائط الخلفي للحلق.	٣ - تَقَعُّرَ اللّسان وارتفاع مؤخّرته نحو الحَنَك الأَعْلى مع رجوعه باتجاه الحائط الخلفي للحَلَق، فالصوت مُطْبق «مفخّم».
٤ - الأوتار الصوتيّة في حالة اهتزاز مُسَبِّبَةً جَهْر الصوت.	٤ - الأوتار الصَّوتيّة في حالة اهتزاز مُسَبِّبة جَهر الصوت.

وإذا نَظَرتَ في هذه الأَوْصافُ المُتقابلة على ما ذَهَبَ إليه الباحثون بدا لَكَ الفَرْقُ بين الصُورتين محصوراً في أُمور:

- المخرج على خلاف.
- شدة في الضّاد الحديثة في مقابل رخاوة في الضّاد القديمة.
- سطحيّة تيار الهواء في الحديثة، يقابله جانبيّة التيار واستطالته في القديمة.

أما الجهر والإطْباق فَكِلَتاهما من صِفات الاشتراك.

قال إبراهيم أَنيس[٦٩]:

«والذي نستطيع تأكيده هنا هو أنّ الضّاد القديمة قد أصابها بعض التطوُّر حتى صارت إلى ما نعهده لها من نُطق في مِصْر، وأنّ هذا التطوّر كان قد تمّ في عهد ابن الجزري، أي في القرن الثامن الهجري، فهو يقولُ في كتابه التمهيد: «إن بعض المصريين وبعض المغاربة ينطقون بالضّاد المعجمة طاء مهملة...».

ثم قال أنيس:

«والضّاد القديمة كما أتخيلُها يمكن النُّطْقُ بها بأن يبدأ المرءُ بالضّاد الحديثة، ثم ينتهي نطقه بالظّاء، فهي إذاً مرحلة وُسْطى فيها شيء من شدّة الضّاد الحديثة، وشيء من رخاوة الظّاء العربية».

ونجد نظير ذلك عند تمام حَسّان، إذ يقول[٧٠]: «هو صوت أسناني لثوي مجهور مُفَخَّم كما ينطق به قرّاء القرآن في مِصر في وقتنا الحاضر...».

وبعد أن عَدَّدَ الصِّفات المائزة للحرف في النُّطق القديم قرّر أَنّ هذه الصِّفات تُشيرُ إلى ضاد غير شبيهة بما ننطقه في الوقت الحاضر.

وخالِصَةُ القول في هذا أَنّ الضّاد حتى في الأداء القرائي المعاصر مخالفة للضّاد القديمة كما أثبتتها مصنّفات المتقدّمين من أئمّة النّحو واللُّغة؛ بل في مصنّفات الرّاسخين في علم التجويد والقراءات وتجيء هذه المخالفة في الضاد

في أوجه تتغير بها خريطة العلاقات بين أصوات العربية، إذ الْتبست الضّاد بالظّاء قديماً، وأصبحَ سَلْبُ الإطْباق منها بحسب الأداء المعاصر موجباً لتحولّها إلى الدّال بعدَ أنْ كان هذا السّلْب في القديم يخرجها من الكلام، وصار الجَهْر هو السِّمَة الفارقة الوحيدة التي تميزها من الطّاء، ولم يكن ذلك كذلك في القديم، بل إنّ هذا التغيُّر الطارئ عليها كان موجباً لإدخالها في حروف القلقلة بتوافر شروط القلقلة فيها، وهو ما ليس الآن بكائن، كُلُّ أولئك موجب لرجع النظر بالكليّة في أمر الضّاد، وأحكام إدغامها في القراءة المعاصرة، وعلاقتها بالقديم، وهو ما نبسط القول فيه في موضعه من هذا البحث.

بين الضّاد والظّاء في القديم:

التَبَست الضّاد بالظّاء في القديم بجامع الرَّخاوة والجَهْر والاستعلاء (أو التفخيم) في كُلٍّ، وإنْ بَقيَت الاستطالة سِمَة فارقة بينهما؛ إذ إنّها صِفة لَمْ تُقَرَّ إلّا للضّاد وحدها، ومن ثَمَّ دَأَب المتقدّمون على التحذير من الخَلْطِ بينهما؛ إذ رأوا أَنَّ أَكْثَر النّاس لا يُحْسِنُون النُّطْقَ بالضّاد، بل يميلون به إلى الظّاء؛ لأَنّ الضّاد حرف عَصِيٌّ، وقد سبق نَصُّ ابن الجزري في هذا.

ولقد أَنْبَه الزمخشري على هذا في تفسير قوله تعالى[٧١]: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾[٧٢]، قال: «بظنين، أي: بمتهم. من الظِّنّة وهي التهمة، وقرئ[٧٣] «بضنين» من الضّنّ وهو البُخْل...، وفي مصحف عبدالله بالظّاء[٧٤]، وفي مُصحف أُبيّ بالضّاد، وكان رسول الله ﷺ يقرأ بهما، وإتقانُ الفَصْل بين الضّاد والظّاء واجب، ومعرفة مخرجيهما مما لا بُدَّ منه، فإنّ أكثر العَجَم لا يُفَرّقون بين الحرفين، وإنْ فَرّقوا ففرقاً غير صواب، وبينهما بَوْنٌ بعيد».